

الحركة التعاونية الاستهلاكية

للاستاذ عبد اللطيف عامر

الحركة التعاونية الاستهلاكية ، أو التعاون بين المستهلكين كنظام اقتصادى اجتماعى ، يدين بالفضل فى وجوده للظروف التى صرت على العمال فى إنجلترا ، ولما قاسوه من صنوف المحن واللوان الشقاء خلال الفترة الطويلة التى اصططحوا على تسميتها بفترة الانقلاب الصناعى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

كان من مظاهر الانقلاب الصناعى أن فوجئ العمال الذين يشتغلون بالصناعات فى ذلك الحين بتغيير كبير فى عمالهم فنحّلت الأوضاع القديمة للعمل تحولا خطيرا فى مظهرها وفى نتائجها الاقتصادية والاجتماعية .

وترتب على ذلك أن أصبح العمل سلعة من السلع الرخيصة جدا فى سوق الصناعة ، وضاعت بالعمال سبل المعيشة ، وتحكم فيهم أصحاب الأعمال فأذاقوهم من الإعنات والقسوة أو أنا وصاءت حالتهم لدرجة لفتت إليهم أنظار المصلحين الاجتماعيين .

ولكن حالة العمال هذه هى التى أخرجت لنا أولئك المصالحين الذين حاولوا بكفالتهم وتجاريهم أن يصلحوا من حالة العامل . وفى طلبعتهم ” روبرت أوين “ الذى يسميه العالم أجمع ” أبا التعاون “ و ” وليم كنج “ و ” وليم توبسون “ وهم الذين تفتت أذهانهم ودفعتهم عاطفتهم لخدمة العمال ، وقد حاولوا جهدهم أن يجعلوا من التعاون نظاما كفيلا باقناذ أولئك العمال من وهدة الشقاء .

ولولا التعاليم التى وضعها هؤلاء المصلحون ، وكفالياتهم وتجاريهم العملية التى حفزت جمهورا كبيرا من الكتاب المعاصرين والأتباع إلى أن ينحوا نحوهم ويضربوا على نعمتهم لما تكونت هذه العقيدة التعاونية التى تشبعت بها نفوس العمال الذين كان منهم هذا النفر القليل من عمال بلدة صغيرة بالقرب من مانتستر تسمى ” روتشديل “ . فقد كتب لهم التوفيق فى تجربتهم ، وعلى أيديهم حدثت المعجزة التى تكون بها هذا النظام التعاونى أو هذا النظام الاقتصادى الاجتماعى العالمى الكفيل بإسماعاد العالم اذا أخلص فى تنفيذه .

والانقلاب الصناعى (وهو الداعى الأول الى التفكير فى النظام التعاونى ثم الى وجوده) هو هذا التحول الكبير الذى طرأ على الصناعة باحلال الآلات محل العمل اليدوى فى الصناعات ، وانتقال المال حيث توجد هذه الآلات ، وبتركيزهم فى المصانع . وقد بلغ هذا التطور فى الصناعة أو هذا الانقلاب أشده فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٧٧٠ و ١٨٤٠ حتى ان الصبى الصغير الذى كان يعمل على الآلة أصبح ينتج مادة مصنوعة تفوق فى الكمية وفى الجودة ما كان ينتجه عدة رجال يعملون بأيديهم .

وقد ترتب على هذا أن عددا كبيرا من العمال أصبح زائدا على حاجة الصناعة ، وهذا الذى دأب أصحاب العمل الى الاستفادة من هذه الحالة فخفضوا أجور العمال حتى أصبحت أقل من القليل الذى يكفى للقوت الضرورى . . وكانت حياة العمال أثناء هذا الانقلاب سلسلة من المحن . . إذ كان العامل يقاسى الأمرين بسبب سوء الحالة الصحية فى مسكنه وفى المصنع الذى يعمل فيه . . حتى الأطفال بين سن الخامسة والثامنة كانوا يستأجرون فى أعمال شاقة مضنية متلفة لصحتهم وهم فى هذه السن الغض المبكرة .

ولكى نزداد علما بحالة العمال فى ذلك الوقت لا بأس من أن نذكر أن الحروب النابليونية كانت مستعرة فى أوروبا الى عام ١٨١٥ أى فى نفس الوقت الذى كان فيه الانقلاب الصناعى على أشده ، وبسبب ما ترتب على هذه الحروب من خراب واضطراب اقتصادى ازدادت حالة العمال سوءا خصوصا فى الفترة بين سنتى ١٨١٥ و ١٨٤٠ أى فى مدى ربع قرن كامل ، لأن هذا الاضطراب الاقتصادى الذى حدث لم يدع مجالا لى تستخدم الصناعة الحديثة فى وقت قصير كل الأيدي العاملة التى شل عملها الانقلاب الصناعى .

ومن الغريب أن العامل فى إنجلترا فى ذلك الوقت ، وحالته كما وصفنا ، كان يتحمل وحده معظم عبء الضرائب التى تفرضها الحكومة ، فتحول ثلثى مجموع إيرادات الحكومة كان مصدره الرسوم الجمركية وما شابهها من الضرائب . فكانت تفرض رسوم جمركية فادحة على القمح والشاى والبن والكافور والتبيل والصوف والزجاج وغيرها من المواد الأساسية التى لا غنى للعامل عنها . كما كانت تفرض ضرائب على استهلاك الشمع والبفتة والجرائد إلى غير ذلك من السلع التى لابد لكل شخص من استعمالها .

ومن المعروف أن الضرائب على السلع الضرورية المعدة للاستهلاك سواء كانت ضرائب مباشرة على الاستهلاك أو غير مباشرة على شكل رسوم جمركية يكون عبؤها ثقيلا على الطبقة الفقيرة ذات الإيراد المحدود ، والتى تضطر إلى إنفاق كل دخلها على الضروريات . أما الضريبة على الدخل أو على الإيراد ، وهى التى يقع عبئها على الطبقة الغنية ذات الإيراد

الكبير فيبعد أن فرضتها الحكومة إبان الحروب النابليونية عادت فألغتها في عام ١٨١٦ مما جعل العمال يعتقدون بحق أن الحكومة لا تعمل إلا طبقا لمشينة ومنفعة الطبقة الغنية وأصحاب الأملاك . . وتدهورت حالة العمال من سيء إلى أسوأ حتى اضطرت الحكومة إلى العودة إلى فرض ضرائب الدخل في عام ١٨٤٢ وتخفيف العبء قليلا عن كاهل تلك الطبقة العاملة البائسة .



وانضرب هنا مثلا من الأمثلة الكثيرة لكي نصور مدى ما كان يعانيه العمال من البؤس في ذلك الوقت ، والمثل الذي نسوقه للقراء وصف لحالة العمال في بلدة "روتشديل" كما ذكرها أشهر المؤرخين التعاونيين وهو "جورج جاكوب هوليثوك" . . قال :

" كان النساجون على الأنوال اليدوية في بلدة روتشديل أكثر العمال بؤسا وأشدهم تأثرا بالآلات الحديثة ، وفي هذا يقول " شانون كروفورد " في خطاب له في مجلس العموم في ٢٠ سبتمبر من عام ١٨٤٠ : أن هناك ١٦٠ شخصا يعيش كل منهم على ٢٥ مليا (٦ بنس) في الأسبوع ، و ٢٠٠ يعيش كل منهم على ٤٠ مليا (١٠ بنس) في الأسبوع ، و ٥٠٨ يعيش كل منهم على ٥٠ مليا في الأسبوع ، و ٨٥٥ يعيش كل منهم على ٧٥ مليا في الأسبوع ، و ١٥٠٠ شخص يعيش كل منهم على ٩٠ مليا في الأسبوع . وثبت أن نحو ٨٥٪ من هؤلاء الأشخاص لا يجدون غطاء في مساكنهم يقيمهم قارص البرد " .

وقد تعددت حوادث الاضراب من العمال في ذلك العهد على غير جدوى ، إذ كانوا أشدة فقرهم لا يستطيعون أن يضربوا طويلا وكما أن هناك فائضا كبيرا من الأيدي العاملة التي لا بد لها من أن تعيش بأى أجر يعرض عليها مهما كان ضئيلا ، فكل عامل "جائع" يضرب كان يسهل على صاحب العمل أن يجد بدله عاملا آخر " أكثر جوعا " يقبل العمل بالأجر نفسه ليستبد به بعض رفقته وأطفاله . فالبطون الجائعة — بطون الصغار الذين يطلبون لقمة الخبز باكين — لا تستطيع النفوس مقاومة تأثيرها مهما كان الحافز الى الاضراب قويا .

نكتفى بهذا القدر في تصوير حالة العمل والعمال في إنجلترا إبان الانقلاب الصناعى .

ولقد كان من أهم أصحاب المصانع البارزين في ذلك الوقت " روبرت أوين " في بلدة من بلاد اسكتلندا تسمى " نيولانارك " ويقولون عن مصنعه إنه كان أحسن مثال في حسن الإدارة ، وكان لروبرت أوين ميول قوية نحو اسعاد العمال الذين يعملون في مصنعه ولذلك كان يعاملهم معاملة يحسدكم عليها اخوانهم في المصانع الأخرى غير أننا لو نظرنا في هذه الأيام إلى المعاملة التي كانت تعتبر حسنة في ذلك الوقت لوجدناها ظالمة مجحفة .

فثلا كان يعمل في مصنعه نحو ٢٠٠ عامل وكان من بينهم في بادئ الأمر نحو ٥٠ طفل تراوح أعمارهم بين الخامسة والثامنة ، وكانوا يعملون من الساعة السادسة صباحا إلى الساعة السابعة مساء مع أعطائهم نصف ساعة للافطار وثلاثة أرباع الساعة للغداء ، أى أن مدة العمل اليومي كانت اثنتى عشرة ساعة إلا ربعا .

ومع هذا فقد أعد روبرت أوين للصغار من عمال مصنعه مدرسة مسائية تبدأ الدراسة فيها من الساعة السابعة مساء وتنتهى فى التاسعة ، إلا أن هذه المدرسة لم تكن ذات فائدة ملموسة لأن هؤلاء الصغار الذين أضناهم التعب ساعات طويلة اثناء النهار ، كان النعاس يغلب كثيرا منهم وهم جلوس يتلقون دروسهم .

لم يكن روبرت أوين راضيا عن تشغيل عماله هذه الساعات الطويلة من كل يوم ، أو تشغيل الأطفال الصغار فى أعمال شاقة تنوء بها كواهلهم ، غير أن شركاءه فى المصنع كانوا لا ينظرون نظارته فلم يكن فهم ينصرف إلى شىء غير تضخيم أرباح المصنع واستغلال من فيه إلى أقصى حد .

وقد وجه روبرت أوين عنايته فى بادئ الأمر إلى توحيد عماله على النظام والطاعة والادخار ، ثم جاهد فى سبيل الوصول إلى حل لمشكلة الأطفال فتوصل إلى الإستغناء عن تشغيل جميع الأطفال الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات ، وكان بين الاصلاحات التى قام بها أن أوجد صندوق ادخار للعمال أحسن ادارته كل الإحسان ، كما خصص أموالا لعلاج المرضى من العمال جميعا بدون مقابل ، ثم افتتح لهم أخيرا محلا لإمدادهم بالمأكولات والملبوسات واللبن والوقود من أحسن الأصناف وبسعر لا يكاد يزيد على سعر التكاليف . وقد أشار روبرت أوين إلى هذا المحل فيما بعد فقال إنه وفربه على العمال ٣٥٪ من الأثمان التى كانوا يدفعونها ، واتبع أوين جهوده هذه بفتح مدرسة نهائية خصصها لأبناء العمال مع ابقاء المدرسة الليلية للعمال كبارهم وصغارهم .

ويحسن أن نأق هنا على ما قاله روبرت أوين نفسه فى وصف مصنعه عام ١٨٢٨ :

”لقد قضينا ٢٩ عاما دون أن نضطر إلى اللجوء إلى القضاء أو أن يلحق بأحد عمالنا أية عقوبة قانونية ، كما أن عمالنا لم يتفش بينهم ادمان الخمر ، ولم تشب بينهم عداوات دينية ، ولقد خففنا ساعات العمل وأحسننا تعليم الأطفال منذ حداثتهم ، وادخلنا نحسينا كبيرا على مساكن العمال المكتظة بهم ، ودفعنا فائدة رأس مال المصنع ، وفى النهاية خرجنا بأرباح تربى على ٣٠٠,٠٠٠ جنيه “ .

عبد اللطيف عاصر